

فلما كان المقام في آل عمران هو الكلام على عهد الله ناسب تشديد العقوبة
على مضيعيه أكثر مما في البقرة لأن السياق يقتضيه .

فما أجلّ هذا الكلام وأعظمه!

ونكتفي بهذا القدر فإن فيه الكفاية وإلا فالاستقصاء بعيد المنال .

التوكيد في القرآن الكريم

من المعلوم أنه يؤتى بالألفاظ المؤكدة بحسب الحاجة إليها. فقد يكون الكلام لا يحتاج إلى توكيد، وقد يحتاج إلى مؤكد واحد أو أكثر بحسب ما يقتضيه المقام. وقد راعى القرآن الكريم ذلك أدق المراعاة في جميع ما ورد من مواطن التوكيد. فهو في غاية الدقة في اختيار الألفاظ المؤكدة في وضعها في الموضوع المناسب بحسب طريقة فنية متقنة.

إن التوكيد القرآني كله وحدة متكاملة منظور إليه نظرة شاملة وقد روعيت في ذلك جميع مواطنه فهو يؤكد في موطن ما مراعيًا موطنًا آخر قرب أو بعد، فتدرك أنه أكد في هذا الموطن لسبب اقتضى التوكيد ولم يؤكد في موطن آخر يبدو شبيهاً به لانعدام موجبه، وترى أنه هنا أكد بمؤكدين وأكد في موطن آخر يبدو شبيهاً به بمؤكد واحد لسبب دعا إلى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له. وكذلك في اختيار المؤكدات فهو يؤكد هنا بالنون المخففة مثلاً وفي موطن آخر بالنون الثقيلة. وهنا بياناً المشددة وفي موطن آخر بيان المخففة ويستبدل حرفاً بحرف كل ذلك بحسب منظور فني كامل متكامل في كل القرآن، فجاء التوكيد كله في القرآن كله كأنه لوحة فنية واحدة فيها من عجائب الفن - وليس فيها إلا العجيب - ما يجعل أمهر الفنانين يقف مبهوراً دهشاً مقراً بعجز الخلق أجمعين عن استخلاص عجائبه فضلاً عن الإتيان بمثله.

ولنضرب أمثلة على ذلك تكون مرقاة لما فوقها ومن الله التوفيق.

١- لقد ذكرنا أن القرآن الكريم قد يأتي بلفظ مؤكد في موطن وينزعه في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وإذا تأملت ذلك وجدت أنه وضع كل تعبير في موطنه اللائق به.

أ- فمن ذلك مثلاً الإتيان باللام التي تفيد التوكيد وذلك نحو قوله تعالى:

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل].

وقوله:

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر].

وقوله:

﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر - المؤمن].

فقد أدخل اللام في آية النحل على (بئس) فقال: (فلبئس مَثْوَى المتكبرين) دون الآيتين الأخريين إذ قال فيهما: (فبئس مَثْوَى المتكبرين) وذلك أنه في سورة النحل وصف قوماً أشد كفراً وأكبر جرماً من المذكورين في آيتي الزمر والمؤمن، وذلك أنهم ضلوا وأضلوا غيرهم وحملوا من أوزار الذين يضلونهم علاوة على أوزارهم هم فزاد عذابهم، قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ [النحل].

فناسب ذلك زيادة اللام لتوكيد العذاب لهم بخلاف المذكورين في الآيتين الأخريين، فإنه لم يصفهم بمثل هذا الوصف.

ومن ناحية ثانية أفاض في سورة النحل في وصف الكافرين ما لم يفضه في السورتين الأخريين، فناسب ذلك أيضاً ذكر اللام والزيادة في التوكيد، إذ كما زاد وتبسط في الوصف زاد في التوكيد لأنه هو المناسب لمقام التبسيط والإفاضة. جاء في (درة التنزيل): « للسائل أن يسأل فيقول:

ما بال الآية في سورة النحل خصت وحدها بدخول اللام على قوله: (لبئس) فيها وإخلاء الآيتين من السورتين منها فيما قبلهما؟

الجواب أن يقال: إن الآية الأولى من هذه السورة في ذكر قوم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم وهم الذين أخبر الله تعالى عن أتباعهم أنهم سألوهم عن القرآن فقالوا: ليس من عند الله وإنما هو أساطير الأولين: قال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ [النحل].

وهؤلاء أكثر الناس آثاماً وأشدهم عقاباً. ومن هذه صفته اختيار عند تغليظ العقاب له إلى المبالغة في تأكيد لفظه فاخترت اللام هنا لذلك، ولأن بعدها في ذكر أهل الجنة قوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل] فاللام في: (لنعم) بإزاء اللام في: (لبئس). وليس كذلك الآيتان في سورة الزمر والمؤمن لأنهما في ذكر جملة الكفار قال الله عز من قائل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا...﴾ [الزمر] وقال في سورة المؤمن: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر] إلى قوله: (ادخلوا) فلما كان المذكورون في سورة النحل فيمن لزمهم وزران عن ذنوبهم التي أتوها وعن ذنوب غيرهم التي حملوا^(١) عليها ولم يذكر من سواهم في الآيتين الأخيرتين يحمل أثقالاً مع أثقالهم، حسن التوكيد هناك فضل حسن فلذلك خص باللام «(٢)».

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل].

وقوله:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام].

فأكد ذلك باللام في حين قال:

﴿الَّذِي يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالَدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف].

فلم يؤكد باللام.

(١) كذا في المطبوع ولعل الصواب (حصلوا).

(٢) درة التنزيل ٢٦٣.

وسر ذلك والله أعلم أن السياق في آيات الأنعام والنحل هو عن الدار الآخرة، وليس كذلك السياق في آيات الأعراف.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَوَرَدُوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ؕ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؕ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِقْلَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ؕ أَلَا سَاءَ مَا يَرِزُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمُ اللَّذَائِرُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّالَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أن الكلام على الدار الآخرة، وليس الأمر كذلك في آيات الأعراف بل هو في العقوبات الدنيوية لبني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّنَا وَعَلَّيْهِمْ يَنْقُوتُونَ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَلْنَا لَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزِّهِمْ لَعْنًا لَّيْسَانَ ﴿١٦٧﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٨﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٠﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِثْلُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَائِرُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّالَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف].

فلما كان الكلام في آيات الأنعام على الدار الآخرة أكدها باللام، ولما كان الكلام في آيات الأعراف على عقوبات الدنيا لم يؤكد الآخرة باللام، بل أكد سرعة العقاب لأنه عاجلهم في الدنيا فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾.

وكذلك آية النحل فالسياق فيها يتحدث عن الدار الآخرة قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيَّن شُرَكَاءِ عَمَّ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ ؕ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَىٰ أَلْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ؕ قَالُوا لَسَلَّمَ مَا

كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءِ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلْدِيكٍ فِيهَا فُلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ اتَّقَوْا خَيْرٌ مِنَ الْأَخْزَرِ وَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ نُوَفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ [النحل].

فأنت ترى أن الكلام على الدار الآخرة، فأكدتها باللام بخلاف آية الأعراف^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي...﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل].

فلم يذكر اللام في جواب (لو) في الآية الأولى بخلاف الثانية، وذلك لأن هداية الناس أصعب وأعسر من الإهلاك. فإهلاك الألف وألوف الألف ممكن بوسائل الفتك والتدمير والظواهر الطبيعية، ولكن هدايتهم عسيرة، فجاء باللام لما هو شاق عسير ونزعها مما هو أيسر.

ونحوه قوله تعالى: ﴿أَنْ لَوْ شَاءَ أَصَبْنَهُمْ بِدُنُوبِهِمْ...﴾ [الأعراف] وهذه نظيرة آية الإهلاك السابقة بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً...﴾ [الزخرف]. فنزع اللام من الآية الأولى لأن فعلها أيسر من الآية الثانية، فأكد ما هو أعسر وأشق وإن لم يكن على الله شيء عسير.

ونحوه قوله تعالى:

﴿أَنْطَعِمُ مِنْ لَوِيضَةٍ أَلْطَعَمَهُ...﴾ [يس].

فإنه أيسر من قوله:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَضَعُوا مُضِيًّا وَلَا

(١) انظر معاني النحو ١/٣٤٢ وما بعدها.

يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ [يَسْ] فالإطعام أيسر من المسخ^(١). فجاء باللام في الموضع الذي تستحقه، ونزعاها من الموضع الذي لا يقتضي ذكرها.

ومن طريف ذلك قوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۗ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿١٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿١٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاغًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ [الواقعة].

فقال في آية الزرع: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ باللام في: (لجعلناه)، وقال في آية الماء: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاغًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ فلم يذكر اللام وذلك لسر لطيف وهو أنه ذكر عمل الإنسان في الحراثة والزرع وبذل الجهد فيهما فقال: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۗ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ [الواقعة] فإن الزراعة والحراثة تقتضي بذل جهد كبير ليستوي الزرع على سوقه، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر بذل جهد فيه للإنسان بل قال: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿١٩﴾ [الواقعة] فأية الزرع ذكر فيها بذل الجهد والعمل، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر فيها شيئاً.

ثم إن الإنسان إذا حرث وزرع وبذل جهداً ومراقبة حتى إذا استوى زرعه على سوقه وحن وقت الاستفادة منه أصبح حطاماً، كان ذلك أشق شيء عليه لأنه يرى عمله وكده وإنفاقه ذهب هباءً وضاع سُدىً، ألا ترى إلى قوله تعالى فيما بعد: ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾ [الواقعة]. ومعنى (تفكّهون): تدمون على اجتهادكم فيه^(٢) وتذكرون الحرمان بعد التعب، والمغرم: المثقل بالديون.

ثم انظر إلى فداحة الخسارة الاقتصادية بصيرورة الزرع حطاماً وما ينتج عن ذلك من كوارث جسام تحيق بالبشرية.

(١) انظر معاني النحو - لو.

(٢) تفسير البيضاوي ٧١٢.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الماء الأجاج يمكن تحويله إلى ماء عذب بالتقطير أو بغير ذلك من وسائل التحلية فيكون صالحاً للاستعمال والشرب كما نرى الآن في كثير من الأماكن، أما الحطام من الزرع فلا يمكن تحويله إلى حب أو فاكهة يأكل منها الإنسان، فحالة الحرمان والخسارة فيه أكبر. فانظر الفرق بين الحالين.

فوضع اللام في الموضع الذي يقتضيها. جاء في (الكشاف): «إن هذه اللام إنما أدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب وأن الوعيد يفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم... ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب»^(١).

يدلك على ذلك أنه حيث اجتمع الأكل والشرب في القرآن الكريم قدم الأكل على الشرب. قال تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَسَقِينِي﴾ [الشعراء]. وقال: (كلوا واشربوا) في آيات عدة من القرآن الكريم^(٢) بتقديم الأكل على الشرب، وههنا قدم الحرارة والزرع على الماء، فناسب ذلك إدخال اللام على آية المطعوم دون المشروب.

وجاء في (روح المعاني) نقلاً عن (المثل السائر): «إن اللام أدخلت في المطعوم دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً في العرف والعادة، والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب. وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة، فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد، فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق.

وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع يكون عن سخط شديد. فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره. إنتهى»^(٣).

(١) الكشاف ٣/١٩٧.

(٢) انظر البقرة ٦٠، الطور ١٩، الحاقة ٢٤، المرسلات ٤٣.

(٣) روح المعاني ٢٧/١٤٩.

ب - ونحو ذلك إدخال نون التوكيد على الفعل في الموضع الذي يقتضيها وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة].

وجاء هذا التعبير في الأنعام - الآية ١١٤ وفي سورة يونس - الآية ٩٤. غير أنه قال في سورة آل عمران:

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران].

فأكد الفعل (تكون) في سورة البقرة والأنعام ويونس دون آية آل عمران. وذلك أن المقام يقتضي التوكيد في كل موطن أكد فيه الفعل دون الموطن الذي لم يؤكد فيه. فقد أكد في سورة البقرة لأن المقام فيها في تبديل القبلة وما صحب ذلك من إرجاف وأقاويل وإعلان حرب نفسية على المسلمين حتى ارتد بعض ضعاف الإيمان. قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَّهُمْ عَنِ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة]. وقال: ﴿ . . . وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ . . . ﴾ [البقرة].

ثم ذكر أن أهل الكتاب لن يتوجهوا إلى قبلة المسلمين مهما جتتهم بالآيات البينات والحجج الواضحة فقال مؤكداً بالقسم: ﴿ وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ [البقرة].

ثم قرر أن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، فاحتاج كل ذلك إلى التوكيد فقال: ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾.

وأما في آية آل عمران فليس الأمر كذلك فقد قال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران].

ففي آيات البقرة من الإرجاف والفتنة ما ليس في آية آل عمران، فاحتاج المقام في البقرة إلى التوكيد بخلاف آل عمران.

وكذلك السياق في آية يونس فإنه يقتضي التوكيد فقد قال تعالى :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَفَدَّ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يونس].

فلما قال: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ ﴾ احتاج إزالة الشك إلى التوكيد. ثم انظر إلى المؤكدات في السياق وهي :

١- التوكيد بالقسم وقد في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾.

٢- التوكيد بالنون في قوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾.

٣- التوكيد ب (إن) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يونس] فافتضى كل ذلك التوكيد، إذ السياق كله مؤكد.

وكذلك ما جاء في آية الأنعام، فإن السياق فيها في تكذيب الرسول وعدم الإيمان به حتى قال: ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام].

ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَإِنْ طُغِيَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِيضُلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام].

فانظر كيف احتاج السياق إلى توكيد أنه على الحق وأنه عليه ألا يكون من الممترين، فأكد في الموطن الذي اقتضى ذلك بخلاف ما لم يقتض ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ لَا يَعْرَنَكَ تَفَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿٢٢﴾ مَتَّعَ قَلِيلًا ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٣﴾ ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿ مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُكَ فِي الْيَلْدِ ﴾ [غافر].

فقد أكد النهي في آل عمران بالنون فقال: ﴿ لَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بخلاف آية غافر. وذلك أن المقام في آل عمران يقتضي التوكيد، إذ الآية في سياق ابتلاء المسلمين في أموالهم وأنفسهم والأذى الكثير ينالهم من عدوهم الكافر يبطش بهم ويفتنهم عن دينهم وينال منهم حتى يبلغ به الأمر إلى أن يخرجهم من ديارهم. قال تعالى:

﴿ تَتَّبَلُّوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَاتَّسَمَعْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ نَصَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ... ﴾ [آل عمران].

فاقتضى ذلك تأكيد عدم الاغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد وسيطرتهم عليها، في حين لم يكن السياق في شيء من ذلك في (غافر) فلم يحتج إلى التأكيد والله أعلم.

ج - ونحو ذلك التأكيد بـ (إن) وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ [١٢٧] لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [١٢٨] وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [١٢٩] [آل عمران].

وقوله:

﴿ فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ آتِينَكَ بِمَحْشَرَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ نَصَبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النساء].

وقوله:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة].

فأنت ترى أنه في الآيات الثلاث لم يؤكد المغفرة بل قال: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في حين قال:

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة].

وقال:

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِنَّمَا فَاصَلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة].

بتوكيد المغفرة فيهما فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وذلك أن المقام يقتضي أن يكون كل تعبير في موطنه، وإيضاح أن المقام في آيات آل عمران هو في إذلال الكافرين وكتبهم وقطع طرف منهم حتى قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران] فلا يناسب ذلك توكيد المغفرة.

ومثل ذلك ما جاء في سورة المائدة فإنها في سياق التهديد للذين يقولون: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وقد توعدهم بأنهم إن لم ينتهوا عن القول بذلك فسيمسهم عذاب أليم، ثم دعاهم إلى التوبة عن القول بذاك. فالمقام - كما ترى - مقام التهديد والتوعد وليس مقام توكيد المغفرة.

ونحوه جاء في سورة النساء فهو في سياق إقامة الحد على من يأتي الفاحشة. وأظن أنه من نافلة القول أن نذكر أن هذا ليس مقام توكيد المغفرة

أيضاً، بخلاف آية البقرة الواردة في سياق الحج وفي مناسكه وشعائره فقد قال :
﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ .

وأحسب أن الفرق بين هذا المقام وما قبله من المقامات من الوضوح بمكان وأن هذا المقام أولى المقامات بتوكيد المغفرة . وكيف لا وقد أخبر الصادق المصدوق أن : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » ، و : « أن الله يباهي الملائكة بأهل عرفة ويشهدهم على أنه قد غفر لهم » .

إن أصحاب هذا المقام ذهبوا ليؤدوا فريضة الحج طلباً للمغفرة، وأولئك إما في مقام معصية أو مقام كفر فأَي المقامين أحق بتوكيد المغفرة؟!

وكذلك قوله تعالى : ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة) .

فالمقام هذا مقام الإصلاح وحفظ الموصي من أن يقع في جنف أو إثم .
أفترى أن الذي يسعى في هذا لا يستحق توكيد المغفرة؟

وأخيراً وازن بين المقامين اللذين مرّا : مقام المعصية والكفر ومقام الإصلاح هذا وحفظ الحقوق، ثم احكم أيهما ينبغي أن يكون مقام توكيد المغفرة تجد الجواب بيناً شافياً . ثم بعد ذلك انظر أي الكلام هذا؟

د - ومن هذا الباب التوكيد بالحروف الزائدة . فإنه من المعلوم أن ما يسمونه بالحروف الزائدة يفيد التوكيد في الأغلب .

قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت] .

وقال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَنَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَأُ الْقَرِينِ﴾ [الزخرف] .

وقال : ﴿... حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا...﴾ [الزمر] .

فزاد (ما) بعد (إذا) في آية فصلت، وذلك لأن شهادة السمع والأبصار وسائر الجوارح « من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشرط الذي هو المعجيء .

الأتري استنكارهم لها حتى قالوا لجلودهم: (لم شهدتم علينا؟) فأجابوا بأن قالوا: ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وليس كذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَعَتْ أَبْوَابُهَا﴾ لأن المجيء يقتضي فتح الأبواب... وكذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: قال الآدمي لقرينه من الجن اللذين اشتركا في الدنيا في معصية الله ثم اشتركا في العذاب في الآخرة: ليتني لم أتبعك وكان بعد ما بين المشركين بيني وبينك.

وهذا أيضاً مما يتوقع كونه منهما، ثم يتبرى بعض من بعض فليس في الجزاء ما يوجب قوة الشرط الذي لا يتوقع ولا يستفاد إلا به ومنه^(١).

ثم إن شهادة السمع والأبصار والجلود أمر مستغرب بخلاف فتح الأبواب ونحوه فأكد ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة ٢٨٢].

زيدت (ما) مؤكدة على الشهداء حضور الشهادة عند الدعوة إليها بخلاف قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنُكُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة ٢٨٢].

وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة ٢٨٢].

وذلك أن الشهيد قد يتباطأ أو يتكاسل أو ينكص عن الشهادة لأنه ليست له مصلحة خاصة به أو قد تلحق به ضرراً فاحتاج إلى التوكيد^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج ٢١].

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُم بِذَلِكَ مِن عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف ٢٢].

فقال في آية الحج: (ما ليس به علم) وقال في الزخرف: (ما لهم بذلك من علم) فزاد (من) في آية الزخرف وذلك أن المقامين مختلفان.

(١) درة التنزيل ٤١٧-٤١٨.

(٢) انظر (معاني النحو) ٤/٤٧٨.

فالكلام في آية الحج على من يعبد غير الله، فقد ذكر أن هؤلاء عبدوا ما عبدوا من دون علم ولا معرفة. والتميز بين عبادة الله وغيره لا يحتاج إلى قدر كبير من العلم، فأقل قدر منه يكفي لمعرفة الطريق الصحيح، وأقل قدر من النظر يهدي إليه ويدل على ضرورة ترك عبادة غير الله.

وأما آية الزخرف فالكلام فيها يتعلق بالقدر قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ...﴾ [الزخرف]. والكلام في القدر قد يحتاج إلى قدر كبير من العلم ورسوخ قدم في المعرفة.

فحتى الذين اتفقوا على عبادة الله اختلفوا في القدر اختلافاً كبيراً حتى أنه أثر عن الرسول ﷺ أنه نهى عن الكلام في القدر، فاحتاج الموطن هنا إلى توكيد العلم بخلاف الموطن السابق، ولذا قال: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فنفى عنهم أقل العلم وهم يخوضون في هذه المسألة الشائكة، ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ بخلاف الآية الأولى التي ختمها بما ليس له علاقة بالعلم بل قال ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِلِيٌّ وَلَا سَفِيحٌ لَعْنَهُمْ يَنْفُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد].

فقال في آية الأنعام: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِلِيٌّ﴾. وقال في آية البقرة: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ بزيادة (من) المؤكدة، وكذا في آية الرعد.

وسبب ذلك أن آية الأنعام في الكلام على الذين يخافون أن يحشروا إلى الله ليس لهم من ولي. وهم على كل حال مؤمنون بهذا اليوم ترجى لهم التقوى بخلاف سياق الآيتين الأخريين. فقد ذكر في آية البقرة أن اليهود والنصارى لن ترضى عن الرسول حتى يترك دينه ويتبع ملتهم، وهذا كفر صريح وانسلاخ من الدين، ولذا عقب عليه بقوله: ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعَتِ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: إن فعل ذلك ماله من الله من ولي ولا نصير.

فالفرق واضح بين المقامين فاحتاج الكلام في آية البقرة إلى توكيد نفي الولي والنصير دون آية الأنعام.

وكذلك المقام في آية الرعد.

هـ - وقد يأتي بالفاظ التوكيد المعروفة في المواطن التي تقتضي ذلك، ويتركها في مواطن أخرى تبدو شبيهة بها. فإذا دقت النظر وجدت أنه استعمل كل لفظة في المكان اللائق بها. فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ...﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُفِرُوا...﴾ [الأنفال].

فأكد الدين بلفظ (كل) في الأنفال بخلاف البقرة وذلك لأن القتال في البقرة مع أهل مكة فحسب، أما في الأنفال فمع جميع الكفار ولذا عمم^(١).

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَّنْتُمُوهُمْ وَآخَرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ

(١) انظر ملاك التأويل ١١٧/١ وما بعدها.

أَنْتَهُمَا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ
فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٤٧﴾ [البقرة].

ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْبَلُوكُمْ فِيهِ ﴾ ، والمسجد
الحرام في مكة . ولم يذكر القتال عند المسجد الحرام في سورة الأنفال بل جعله
عاماً فقال :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ
الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٢٨١﴾ وَقَبِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كُفِرُوا لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهُوا
فَأَنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٨٢﴾ [الأنفال].

فلما كان القتال ههنا عاماً عمم الدين فقال : (كله).

ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ
أَخْرَجْتُمُوهُمْ ﴾ «أي من مكة وقد فعل رسول الله ﷺ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح»^(١).

هذا ومن ناحية أخرى حصر القتال في سورة البقرة بصد العدوان فقال :
﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا إِيَّاهُ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ﴿١٩١﴾
[البقرة] . فلما كان القتال محدوداً باديء ذي بدء لم يأت باللفظة الدالة على
العموم بل قال (ويكون الدين لله) بخلاف ما في الأنفال فإنه لم يخص القتال
برد العدوان بل أطلقه فقال : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ
وَإِنْ يُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٢٨١﴾ وَقَبِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الَّذِينَ كُفِرُوا لِلَّهِ . . . ﴿٢٨٢﴾ [الأنفال] فلما أطلقه في الأنفال وعممه، جاء باللفظة
الدالة على الشمول وهو لفظ (كل) أي: جميعه . فأنت ترى أن لفظة (كل) في
آية الأنفال اقتضاها المقام من ناحيتين :

الأولى: أن القتال في البقرة كان خاصاً بأهل مكة، وفي الأنفال كان عاماً
مع أهل الكفر .

(١) الكشاف ١/ ٢٦٠.

الثانية: أن القتال في البقرة مخصوص بصد العدوان وفي الأنفال عام.
فناسب وضع (كل) في الأنفال دون البقرة.

ثم انظر إلى ختام كل من الآيتين فقد قال في ختام آية البقرة: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوَ فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١١٣).

وقال في ختام آية الأنفال: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢١) وذلك أنه لما كان الكلام في البقرة على الاعتداء فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة] وقال بعدها: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ...﴾ [البقرة] ناسب أن يقول: ﴿فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

وأما في آية الأنفال فالمقصود أن تكون السيطرة للإسلام، وليس معناه دخول أهل الأديان كافة في الإسلام بحيث لا يبقى أحد منهم على دينه، بل ربما بقي من أهل الملل الأخرى من بقي على دينه في حكم الإسلام فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: إذا كادوا فإن الله بصير بكيدهم.

و - ومن ذلك استعمال ضمير الفصل الذي يفيد التوكيد فتراه يستعمله استعمالاً حسبما يقتضيه السياق والفن.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿وَمَا يَزَعْنِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت].

وقوله:

﴿وَمَا يَزَعْنِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف].

فأكد في سورة (فصلت) بضمير الفصل، وعرف السميع العليم فقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وترك ذلك في سورة الأعراف. هذا وإن سياق كل من الآيتين يقتضي التعبير بما عبر به فقد قال في سورة فصلت:

صَبْرًا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ . . . فلما كان الأمر الذي بعث الله تعالى أوليائه شاقاً عظيماً حتى قال: ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ كانت وسوسة الشيطان في مثله أعظم والمؤمن لها أيقظ . . .

وأما الآية التي في سورة الأعراف فإن قبلها: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف] ولم تعظم فيها الأفعال التي دعا إليها كما عظمت في سورة السجدة، بل كان ما هناك بعثاً على أحسن الأخلاق ولم يخص نوعاً من المشاق كما خص في سورة السجدة، فلم تقع المبالغة في اللفظ واقتصر في الخبر على الأصل وهو أنه: «سميع عليم»^(١).
ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَى اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج].

وقوله:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [لقمان].

فأنت تلاحظ تشابه الآيتين إلا في وجود ضمير الفصل في آية الحج (هو الباطل) وخلوها منه في آية لقمان (الباطل). وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

فآية الحج واقعة في سياق الصراع مع أهل الباطل ومجاهدتهم أشق أنواع الجهاد. ويبدأ الصراع بعد ذكر الأمم السالفة وتكذيبهم لرسولهم بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [الحج].

إلى أن يقول: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴾ [الحج].

(١) درة التنزيل ٤١٩-٤٢٠.

وهذا من نتائج الصراع، الهجرة من الديار والأرض والقتل والموت. فهنا أنصار الباطل ساعون لإطفاء نور الله معاجزون معاندون.

ولا تجد مثل هذا في سورة (لقمان) وإنما هو عرض لأصحاب الباطل من وجه آخر ليس فيه هذا الصراع قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان].

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٢﴾﴾ نُمِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴿٢٣﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٥﴾﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٦﴾﴾ [لقمان].

فأنت ترى أن السياق مع أهل الباطل هنا يختلف. فهم في الصورة الأولى ساعون معاجزون معاندون مصارعون متمكنون في الأرض نتیجته هجرة المؤمنين أو قتلهم أو موتهم، فاحتاج الأمر إلى زيادة تثبيت المؤمنين وعدم افتتانهم بسلطة أصحاب الباطل وتمكنهم من رقاب الناس فإن للسلطان فتنة ورهبة. فافتضى السياق توكيد أن ما هم عليه هو الباطل.

وأما الآية الثانية ففي سياق الجدل العقلي والمحاجة بين الفريقين، وليس فيها ذكر لصولة الباطل وبطشه.

فلم يقتض السياق ما اقتضاه في الآية الأولى من التوكيد. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنه لما تقدم في سورة الحج ذكر ما يدعون من دون الله من المعبودات الباطلة فقال: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٢٧﴾﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَرْبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَكَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج].

ولم يتقدم مثل ذلك في (لقمان) أكد ذلك في الحج. جاء في (ملاك التأويل): « أن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير

المنفصل، ويناسبه وهو تكرر الإشارة إلى آلهتهم والإفصاح بذكرها تعريفاً بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم. وأوضح هذا التكرار وأشدّه ملاءمة الإتيان بهذا الضمير المعتد فصلاً أو مبتداً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج] وقوله في آخر السورة ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج] هذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنسب شيء لقوله ﴿ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطِلُ﴾ [لقمان] (١).

فانظر رعاك الله سمو هذا التعبير ورفعته.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة].

وقوله:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عِدْنٍ وَّرِضْوَانٍ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة].

فقد جاء في الآية الثانية بضمير الفصل: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ دون الآية الأولى وذلك لجملة أسباب منها:

١- أنه ذكر في الآية الثانية زيادة على الجنات ما هو أكبر منها، ألا وهو رضوان الله تعالى قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر من الجنات وملذاتها ونعيمها. فلما زاد ذلك زاد في توكيد الفوز.

ثم انظر كيف عدل عن قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فجاء بالجملة الإسمية الدالة على الثبوت

(١) ملاك التأويل ٢ / ٧٢٤.

والتي هي أقوى من الفعلية وآكد، فناسب كل ذلك توكيد الفوز وعظمه.

٢- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه زاد على الجنات ذكر المساكن الطيبة في جنات عدن فقال: ﴿وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ فقد ذكر الجنة وذكر علاوة على ذلك المساكن الطيبة، فناسب ذلك أن يزيد في توكيد الفوز.

٣- ومن ناحية أخرى أنه ذكر (من) في الآية الثانية دون الأولى فقد قال: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وقال في الآية الأولى: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. ومعنى (من) هنا الابتداء أي: أن الأنهار تتفجر من تحتها وهذه الحالة أكمل من الحالة الأولى فإنه قال فيها: ﴿تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فإنه ذكر أن الأنهار تجري تحتها، وليس بدء الجريان منها، فناسب كل ذلك زيادة ضمير الفصل لتوكيد الفوز وعظمته. فسبحان الله العظيم، ما أجل هذا الكلام وما أعظمه وما أفخمه!

ثم انظر إلى دققة أخرى في هذا التعبير، وهو أنه حيث ذكر الجنات في القرآن قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بذكر (من) إلا في هذا الموضع فقال: ﴿تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قيل: وسبب ذلك أنه حيث ورد ذكر الجنات ووردت (من) معها كان الكلام عاماً لعموم المؤمنين الذين فيهم الأنبياء والرسل وغيرهم ففيهم من هو أعلى منزلة من المذكورين في آية (السابقين). أما آية (السابقين) فهي مخصوصة بهم، فناسب ذلك أن يزيد (من) لأن فيهم من هو أعلى منهم.

جاء في (درة التنزيل): أن «الذي أخبر عنهم بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار الأنبياء وغيرهم صلوات الله عليهم. و (من) لإبتداء الغاية، والأنهار أشرف مبادئها، والجنات التي مبادئها الأنهار من تحت أشجارها أشرف من غيرها. فكل موضع ذكر فيه (من تحتها) إنما هو لقوم عام فيهم الأنبياء. والموضع الذي لم يذكر فيه (من) إنما هو لقوم مخصوصين ليس فيهم الأنبياء. ألا ترى إلى قوله في سورة التوبة ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَالْأَنْصَارُ

وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يُحَسِّنُونَ رِضَىٰ اللَّهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا... ﴿٥٦﴾ [التوبة].

إذ لا موضع في القرآن ذكرت فيه الجنات وجري الأنهار تحتها إلا وقد دخلتها
(من) سوى الموضع الذي لم ينطق ذكر الموعودين فيها على الأنبياء عليهم
السلام. فهذا الكلام في (من تحتها). اعتبروا بما ذكرت في جميع القرآن^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ﴾ [مريم].

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ﴾ [الزخرف].

فزاد ضمير الفصل في آية الزخرف دون الآيتين الأخريين، وذلك أن آية
الزخرف قيلت في سياق عبادة عيسى وإتخاذه إلهاً بخلاف غيرها، فناسب ذلك
تأكيد ربوبية الله له. جاء في (ملاك التأويل): « وأما زيادة الضمير الفصلي في
سورة الزخرف فيحرز مفهومه معنى ضرورياً دعا إليه ما تقدم في الآية قبله.
وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ
يَصُدُّونَ ﴾ [الزخرف] إلى ما يتلو هذه. ففي التفسير أنه لما نزل قوله تعالى:
﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا
وَرِدُونَ ﴾ [الأنبياء] تعلق بها الكفار وقالوا: قد عبدت الملائكة وعبد
المسيح وأنت يا محمد تزعم أن عيسى نبي مقرب وأن الملائكة عباد مقربون،
فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا في النار فقد رضينا. وجادلوا بهذا فأنزل الله تعالى:
﴿ إِنَّ الذِّبْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء]. فلما
كان تقدم في سورة الزخرف ذكر آلهتهم وقولهم: (آلهتنا خير أم هو)
يعنون المسيح ناسبه ما أعقب به من قوله حاكياً عن المسيح عليه السلام:

(١) درة التنزيل ١٠٢-١٠٣.